الفصل الرابع

فلسفة الشعب الصامتة

"أيتها المشرعة، يا مصدر الدساتير العادلة،

أيتها الديمقراطية، يا من عقيدتك الأساسية،

أن كل خير يأتي من الشعب،

وأنه حيث لا يوجد شعب يغذي العبقرية ويلهمها،

فلا وجود لشيء مطلقاً،

علمينا كيف نستخرج الجوهرة المكنونة في غمار الجموع الغفل."

"رينان"

لا مفر من الفلسفة

انتهينا إلى أن أداة التفكير الفلسفي هي العقل بوسائله الخاصة: من تجريد إلى حكم إلى استدلال إلى برهان. ولما كانت هذه الوسائل في متناول كل إنسان– أياً كان ذكاؤه وأياً كانت ثقافته– لم يكن مناص من أن يتفلسف الناس جميعاً، وإن كانت الانفعالات والأهواء تتدخل أحياناً فتفسد ملكة الحكم السليم، وتطمس إشراقة الذهن، فليس ذلك بمنكر

وجود القدرة على التفكير الخالص. وإن ومضات الفكر قد تنبثق في لحظات لدى أجهل الناس، كما أن ضياء العقل قد تكتنفه سحب الانفعال أحياناً لدى أعمق المفكرين.وقد كان إمامنا سقراط يؤكد هذا المعنى فيخاطب العامة والخاصة على حد سواء، ويدعو إلى فلسفته في عرض الطريق، وفي الأسواق، وفي أروقة المحاكم. كان يناقش الصبي الغرير، واليافع البحاثة، والمثقف المتحذلق، موقناً أن الجهل عرض زائل، وغشاوة تنجاب بشيء من الجهد والإخلاص، حتى ليذهب إلى أن الصبي الصغير يمكنه بقليل من التوجيه والإرشاد، أن يستنتج جميع مبادئ الهندسة التي وضعها إقليدس الرياضي. وكان منهج ديكارت "أبو الفلسفة الحديثة" يقوم على أساس أن العقل "أعدل الأمور قسمة بين الناس، وأنصبة الناس منه متساوية".

قد يعجز الناس في عصر من العصور عن فهم ما يكتبه فيلسوف من الفلاسفة، بل قد يرمونه بالخلط والالتواء في التفكير، ويسخرون منه، وينالون من عقليته. وعندي أن ذلك لا ينهض دليلاً على استحالة فهم الناس لتلك الفلسفة، إنما مرده إلى قلة حظ هؤلاء من الثقافة، وعدم اعتيادهم التعمق في التفكير، وخشيتهم من كل جديد يزلزل عقائدهم، فضلاً عن كون الفيلسوف يعمد أحياناً إلى التعبير في غموض عن أفكار تخطر ببال كثير من الناس العاديين، ويستخدم أسلوباً فنياً مشحوناً بالمصطلحات الغريبة عنهم فيقيم بذلك بينه وبين أذهانهم سداً منيعاً. ولذلك كانت لا تكاد تمضي حقبة من الزمن، يكون الشراح قد تناولوا فيها إنتاج الفيلسوف بالشرح والتفسير وتكون العقول قد نضجت بعض

الشي، والأفهام تهيأت لقبول ما نبذت، فإذا المجنون عبقري خالد، والمارق قديس متبتل، ومذهبه عقيدة راسخة وقد كان الفيلسوف الألماني "عما نوئيل كنت"[1] يقول: "جئت بمؤلفاتي قرناً قبل موعدها، ولن أفهم إلا بعد مائة سنة،وحينذاك ستقرأ كتبي وتقدر قدرها".وقد صدقت نبوءة الفيلسوف العظيم فلم يكد ينتصف القرن التاسع عشر حتى كان في كل قطر من أقطار أوروبا مدرسة فلسفية بأسرها تستمد مبادئها من فلسفة كنت.

إن الفيلسوف لا يأتي بدعا، ولكنه يرى ويسمع، فيحكم ويستنتج؛ وما يراه وما يسمعه أمور تقع تحت بصر الناس وسمعهم، وملكة الحكم أو ملكة الاستنتاج ليست وقفاً عليه، فالناس جميعاً يحكمون يستنتجون؛ ولكنه أدق منهم حساً، ولديه من الفراغ والذكاء والصفات المزاجية ما يكفل له التعمق في تأملاته ومزاولتها أغلب الوقت، والاشتغال بمحاولة فهم الكون عن كل ما عداها من شئون الحياة الجارية. ناهيك بقدرته على التجرد من أهوائه، والوقوف من حوادث الكون موقف المحايد، لا تعنيه التقاليد الموروثة والآراء الشائعة، إن تعارضت مع العقل. وكل امرئ بمقدوره ذلك ولو في فترات منقطعة عبر حياته. ويمكننا كمر بين أن نعود النشء كيف ينتزع نفسه– زمناً ما– من استغراقه في تيار الحياة اليومية، وكيف يستخلص العبر العامة من حادث مفرد، وكيف يتجرد من عواطفه، ويتجرد من تأثير غيره ليحكم في نزاهة، وينقد في جرأة، ويسمو فوق

[1] من فلاسفة القرن الثامن عشر اشتهر بالعمق والغموض.

المشاغل الجزئية التافهة: لست أقصد بطبيعة الحال أن الناس جميعاً فلاسفة، ولكني أقصد أن كل امرئ بمقدوره أن يتهج في حياته نهجاً فلسفياً، وأن الفيلسوف لا يفضل المفكر العادي إلا في الدرجة، وأقصد علاوة على ذلك ما قصده أرسطو بقوله: "إذا لم يلزم التفلسف فلتتفلسف أيضاً لتثبت عدم لزوم التفلسف"[1]. أي أن المرء ليس بوسعه إلا أن يتفلسف ما دام كائناً في عالم دائب الحركة، زاخر بالتطورات والمشاهدات والمفارقات. كل ما يقع عليه البصر يثير العجب والدهشة، ويستفز نزعة الاستطلاع الكامنة في تحفز. هو لا يستطيع أن يقف موقف المسجل لهذه الظواهر فحسب، فعقله دائب التساؤل، وهو قلق ما لم يصل إلى تفسير لما يرى، وتصور معقول للكون في مجموعه أو في ناحية من نواحيه. وهو إذا ما صاغ نظرية ما، هدأ القلق، وحقق– إلى حين– الطمأنينة العقلية التي لا غنى عنها للمضي في رحلة الحياة.

قد تكون النظرية التي يفضى إليها تفكير المرء خاطئة أو قاصرة، ولكن ذلك لا يقضي على قيمتها من حيث أنها كافية لإعادة الأمن العقلي إلى نفسه القلقة، والتعلل بها حتى يهتدي إلى تفسير نهائي. وإذا كان الإنسان عاجزاً عن الوصول إلى تفسير نهائي، فلا يبرر ذلك أن ننكر الفلسفة، أو نمتنع عن التفلسف كما حدث لبعض المفكرين: شكوا في

---

[1] في الميتافيزيقا.

قدرة العقل الإنساني، ويئسوا من بلوغ الحقيقة كاملة، فارتموا في أحضان التصوف، ومنهم من أثر الجهل على علم ناقص[1].

يذكرني ذلك بالنقاش الطويل الذي احتدم بين سقراط– إبان إعدامه– وبين تلامذته، حول الروح وخلودها. ويعترف سقراط بعد إيراد الأدلة على وجود الروح وعلى خلودها، وبعد موافقة تلامذته عليها، بصعوبة المسألة وعدم جواز القطع برأي نهائي بصددها. حينئذ يتشجع أحد الحاضرين، "سيبيس"، ويقول قولاً حكيماً: "يبدو لي يا سقراط، كما يبدو لك، أنه من المستحيل، أو بالأحرى من العسير جداً، بصدد هذه الأمور، أن نعرف الحقيقة في حياتنا هذه. ومع ذلك نرى من الجبن ألا نفحص بعناية فائقة كل ما أسلفنا قوله، وأن ندع جزءاً دون بذل قصارى جهودنا. ذلك أنه لا مناص من أحد أمرين؛ إما أن نعلم الحقيقة عن غيرنا، وإما أن نكتشفها بأنفسنا، فإن استحال كلا الأمرين فلنتخذ من الآراء الإنسانية أقومها وأبعدها عن التفنيد، ولنمتط هذه الآراء كما نمتطى زورقاً يعبر بنا، مخاطرين، هذه الحياة حتى يتيسر لنا أن نعبرها على نحو أسلم وأقل تعرضاً للخطر[2]..."

أجل إن لكل نظرة فلسفية قيمتها، وليس بقادح فيها بعدها عن الصواب أو قصورها عن مطابقة الحقيقة، ما دامت ضرورة حيوية لتهدئة توتر الذهن، عند ما يعجز عن حل مشكلة من المشاكل وعلى هذا

---

[1] الكلبيون الذين عاشوا في القرن الرابع قبل الميلاد.

[2] محاورة فيدون ص ٦١ من الترجمة الفرنسية لبول لمير.

الأساس يحق لي أن أتحدث عن فلسفة شعبية تنطوي عليها حياة عامة الناس، وقد يصرح بها نبهاؤهم قولاً كما سنبين.

فلسفة الخير والشر

رجل الشارع إذ يقول: "كله فان" إنما يركز في لفظين اثنين مذهباً ضافياً ملأ أسفار كثير من فلاسفة الأخلاق؛ لم يستمده من بطون الكتب ولا هداه إليه معلم، إنما هي مدرسة الحياة بتجاريبها تمده بالعرفان، وملكة الحكم السليم، "أعدل الأشياء قسمة بين الناس" تهديه إلى نظرياته. إنه يستقري الحوادث والكائنات، ويلمس انتهاء حياة كل كائن إلى الموت. كل ما يقع تحت حسه ينمو ويزهو، ثم يذوي ويذبل. كل حي يدب على البسيطة دبيباً قد يتجاوب صداه في الآفاق، وينتفض من فرط القوة والحيوية، ويأتي من الأفعال ما نحمده وما ننكره، ثم إن هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى يتلاشى الدبيب، ويزول الصدى، وتخمد الحركة، وتستحيل السيرة ذكريات لا تلبث أن تنمحي:

أتــرى الــدنيا ســوى دار ذات بابــين ظــلام ونهــار
كــم وكــم مــن ملــك جــم حــل فيهــا برهــة وارتحــلا
حين لي دعوة الداغي المطاع[1]

[1] رباعيات عمر الخيام ترجمة محمد السباعي.

ذلك ما يدور بخلد العامي حينما يخلو إلى نفسه يناجيها، أو إلى جماعته يؤانسها، أي حينما ينتزع نفسه من غمار العيش الرتيب. فيطل على الكون من قمة الفكر التي تشرف على الزمان والمكان، ويتحرر إلى حين من إلحاح الحاجات الجسدية التي تعطل التفكير الخالص ما لم ترتو.

وحكيم الشعب الذي يقضي العمر لا يحمل حقداً أو ضغينة، ولا يحس إحنا أو سخيمة، يقدم للناس كل خير فلا يجد منهم غير الحسد ونكران الجميل، تقض مضجعه خيانة الإنسان لأخيه الإنسان، وتترك عشرة الناس في نفسه ندوباً أليمة، حتى ليعصف به شك في وجود الخير في هذه الحياة التي نحياها، شكاً يعبر عنه غناء في أسى نبيل:

"يا زارع الـود هـو الـود ولا سـواقي الـوداد نزحـت

وقد يكون لشكه هذا أبلغ الأثر في سلوكه العملي: إما نقمة وسخط على المجتمع فإعلان الحرب عليه وتلمس السبل للانتقام، وإما غفران فمضى على الصراط المستقيم لا يرعى في شيء إلا ولا ذمة، ولا ينتظر جزاء ولا شكوراً. وهو في الحالين مبرر سلوكه بفلسفة تثبت فؤاده، وتؤكد سلامة اتجاهه أمام نفسه أو أمام الناس. فهو في الحالة الأولى نفعي، قيمة الفعل الأخلاقي في نظره رهن بمقدار ما يجلب لصاحبه من نفع وما يدفع من نكر؛ وهو في الحالة الثانية مثالي يفعل الخير للخير، قيمة الفعل عنده لا ترتهن بما يجلبه من نفع، ولكن بما تحدثه في النفس من رضي وطمأنينة.

ولو تتبعنا تاريخ الفلسفة لو جدنا كلا الاتجاهين في الفلسفة الأخلاقية. يمثل الاتجاه الأول طائفة السوفسطائيين الذين قادوا حركة فكرية في أثينا إبان القرن الخامس قبل المسيح: أعلنوا الثورة على العقائد الموروثة، وسخروا في جسارة من آلهة اليونان، ومضوا في شكهم حتى تناول قواعد الأخلاق فأنكروها، زاعمين أنها بدعة ابتدعها ضعاف النفوس ممن جردتهم الطبيعة من القوة والامتياز، فتوسلوا بالأخلاق والدين للسيطرة على الأقوياء والموهوبين .. أما الخير عندهم فهو المنفعة، والسعادة في إشباع الرغبات والميول التي فطر عليها الإنسان. والواجب يقتضي تحطيم أغلال الأخلاق، لأنها ابتداع يتعارض مع الطبيعة البشرية، وعليه فالإنسان كما يقول أحدهم "بروتاغوراس" مقياس الأشياء جميعاً."فالأشياء هي بالنسبة إلي على ما تبدو لي، وهي بالنسبة إليك على ما تبدو لك، وأنت إنسان وأنا إنسان" أجل: أنا إنسان، وأنت إنسان– فليمض كل منا وفق هواه، وليجرد كل سلاحه فالقوة فوق الحق والبقاء للأصلح.

وقد أجاد الكاتب الفرنسي "هو نوريه دي بلزاك" في تصوير هذا الاتجاه الوصولي النفعي في شخص مجرم خطير هو "فوتران" الخارج على المجتمع. يلتقي "فوتران" ذات يوم بشاب هبط باريس يطلب العلم، هو "راستنياك" الذي يحمل بين جنبيه نفساً أبيه، وقلباً ذكياً، وطموحاً نبيلاً، ولكنه مع ذلك كغيره من الموهوبين في مجتمع منحل، يعجز عن بلوغ المجد، لأنه وقف على من يضحي بمبادئ الشرف والكرامة. يلقاه "فوتران" وهو على هذه الحال من الألم واليأس والرضا– مع ذلك– بالأوضاع والمقادير فيلقنه فلسفته في تلك الكلمات: "أتدري كيف يشق الناس طريقهم في

هذه الدنيا؟ يسقونه ببريق العبقرية، أو بالمهارة في الخسة. يجب أن تسقط في صفوف البشر كقنبلة أو أن تتسلل بينها كوباء. أما الشرف فلا فائدة فيه"[1].

تلك فلسفة يتخذها نفر من الناس يؤيدون بها مسلكاً عملياً ويبررون بها ثورتهم على مجتمع يرونه ظالماً، وهي لعمري تحمل بين طياتها اعتذاراً ضمنياً عن فعال يحسون في قرارة نفوسهم مجانبتها للصواب. وفيما يلي أتحدث عن الفلسفة المقابلة، تلك التي ترى الخير غاية في ذاته، والسعادة في رضي النفس وراحة الضمير...

يقول حكيم الشعب: "اعمل خيراً وارمه في البحر" فماذا يملي عليه هذا القول؟ إنه يرى فناء كل حي، وزوال كل نعمة، وضياع كل مجد؛ ويرى إلى ذلك أن ذكرى العمل الصالح تبقى حية في الأذهان والقلوب والضمائر، وأن لفعل الخير حلاوة تجعل منه غاية جديرة بأن تطلب لذاتها السعادة في نظره ليست في جاه نبلغه، أو صيت نذيعه، أو مال نصيبه، إنما هي في راحة الضمير وهدوء النفس، ولا سبيل إلى ذلك بغير سلامة النية وصفاء الطوية، وهما لا يتفقان مع طلب الخير. اعمل خيراً وألق به في البحر، وترقب السعادة بعد ذلك تأتك طوعاً من حيث لا تدري ولا تحتسب.

---

[1] مسرحية "الأب جوريو".

أيختلف هذا الاتجاه المثالي في شيء عن اتجاه الشاعر الفيلسوف "جوته" في قصة "فاوست"؟. لقد جاهد فاوست جهاداً طويلاً مريراً دون أن يظفر بشيء، ولكن حياته لم تضع هدراً إذ رفعه المؤلف إلى جنات ربه، وما ذلك إلا لأنه قد أحس بالحق والخير والجمال فجاهد في سبيلها، وكان في جهاده هذا خلاصه. "نعم إن معنى تلك الحياة، والأثر الذي خلفته خطى فاوست على صفحات الزمن، هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا في سبيل المثل العليا، وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحاً أم إخفاقاً، فالجهاد نبل في ذاته"[1] ذلك هو الاتجاه الفلسفي الذي تنطوي عليه قصة فاوست وهو نفسه الاتجاه الذي تنطوي عليه عبارة حكيم الشعب "اعمل خيراً وألق به في البحر". أي هدوء تحس به النفوس الخيرة إذ تتمثل هذا الدرس فتغالب بقوته السحرية تيار الجشع والاستهتار. حقاً إن الفلسفة الشعبية الساذجة لتساهم مع الفن والدين في التخفيف من أعباء الحياة.

وبعد، أليس ما ذهب إليه الشعب في حكمته أو "جوته" في قصته، من اعتبار الخير غاية تقصد لذاتها، وهو في جوهره عين ما ذهب إليه الفيلسوف الألماني العظيم "عمانوئيل كنط" في مذهبه الأخلاقي الذي يرى أن الخير الأسمى الذي يتعين علينا أن نخضع له هو "الواجب" المجرد الذي يمليه علينا "أمر مطلق" يصدر من تلك القوة الذاتية الخفية التي ندعوها "الضمير"، تلك القوة التي تعتبر صورة الله في نفوسنا، فالله في الأبدية والضمير في أعماق النفس البشرية.إن السعادة في نظر كنط إنما هي في

[1] نماذج بشرية تأليف الدكتور محمد مندور.

الخضوع للأمر المطلق الصادر من الضمير، والعمل للواجب لذاته. وذلك أمر يتفق تماماً مع ما ذهب إليه كل من جوته والحكيم الشعبي.

ويعرض أرسطو لنفس المسألة فيحصر الخيرات في ثلاثة: إما اللذة، وإما المجد، وإما الحكمة. ويعمل عقله أيها يختار على اعتبار أنه الخير الأسمى؟ فيرى اللذة شعوراً نفسياً يصاحب فعلاً من الأفعال أو وظيفة من الوظائف، وعليه فلا يمكن أن تكون غاية في ذاتها؛ وإنما هي عرض يزول بانتهاء الفعل أو الوظيفة. ويرى المجد لمال تصيبه، أو شهرة ننالها، أو تكريم نحصل عليه، فليس المجد هو الغاية القصوى، إنما الغاية المال أو الشهرة أو التكريم. وهكذا تنتهي فلسفة أرسطو الأخلاقية إلى اعتبار الحكمة هي الخير الأسمى الذي ينبغي أن نطلبه ونعمل وفقاً له، وما الحكمة إلا تغليب قوى العقل على قوى الحس، وتفضيل السعادة الدائمة على اللذات المؤقتة، ونشدان الاتزان النفسي وراحة الضمير– وهل لأحدهما أو كليهما أن يتحقق ما لم "نفعل الخير ونلقه في البحر" كما يفعل الحكيم الشعبي، وما لم "ندأب ما استطعنا في سبيل المثل العليا" كما فعل "فاوست"، وما لم نصغ لصوت الضمير الكامن في أعماق نفوسنا شأن "عمانوئيل كنط"؟!

فن السعادة

الأستاذ الزيات سأل قروية ساذجة[1]: "كيف ترضى بالحياة وهي فقيرة، وتبسم للدنيا وهي منهوكة"؟ فأجابت: "الماء في الكوز والعيش

[1]"قروية فيلسوفة" مقالان للأستاذ الزيات بالعددين ٨١٣، ٨١٤.

مخبوز". ثم مضى أستاذنا يحاورها حتى ينتزع من فمها درساً غالباً في فن السعادة. قالت أم عامر:

"نشأت كما تنشأ القرويات الفقيرات، على التلول كالدجاج وأنا طفلة، وبين الحقول كالذئاب وأنا صبية، آكل العشب واستمرئه، وأشرب الكدر وأستسيغه، وألبس الخشن وأستلينه، وأفترش المدر وأستوطئه، وأعالج الصعب وأستسهله. والذي أحلى المر في فمي، وجمل القبيح في عيني، وألان الغليظ لجانبي: صحة كصحة الظبي الشادن لم تجنح يوماً لراحة، ولم تحتج يوماً إلى دواء؛ ومرانة على عنف الطبيعة لا تفرق طاقتها بين صبح ومساء، ولا بين صيف وشتاء؛ ونفس راضية تقنع بميسور العيش وتخضع لمكتوب القضاء..."

لقد استطاعت صاحبتنا بجهد ذاتي أن تنتصر على أقسى ظروف الحياة، وتنعم بالرضا والهدوء، ذلك أنها مرنت على عنف الطبيعة، وقنعت بميسور العيش، وخضعت لمكتوب القضاء". هي إذن بملكة الحكم السليم ترى السعادة أمراً شخصياً، وليس رهناً بالظروف الخارجية. هي شأن من شئون الذات بمقدور كل إنسان أن يحققها على رغم قسوة الظروف الخارجية. تلك فلسفة تستشفها من ثنايا العبارات الصادقة على سذاجتها، يفوه بها نفر من البسطاء، وهي لا تفترق في جوهرها عن فلسفة الرواقيين التي سادت الفكر اليوناني في القرن الرابع قبل الميلاد، وسيطرت على العقلية الرومانية بعد ذلك، وكان لها أثر فعال في الفلسفة المسيحية، وتقترب من الفلسفة البوذية. عرض لجميع هؤلاء سؤال واحد: "كسيف

السبيل إلى السعادة رغم قساوة الظروف الخارجية، وهل يمكن بلوغها مع ذلك؟" واتفق الجميع على إمكان الوصول إلى السعادة رغم قساوة الظروف، ورسموا طريقاً واحدة، وجاء تعريفهم للسعادة واحداً في معناه رغم اختلاط الألفاظ. فقالت أم عامر: هي "مرانة على عنف الطبيعة، ونفس راضية تقنع بميسور العيش وتخضع لمكتوب القضاء". وقال الرواقي: "هي أن تمتلك نفسك امتلاكاً حراً، وتتحر النفس من قيود الظروف الخارجية، وتخضع إراداتك الجزئية لإرادة الكون الكلية الخيرة المنبثة في أرجاء الكون جميعاً، وقال البوذي: "هي أن تعرف كل شيء، وتفهم كل شيء تنطلق من عبء الحدث وعبء الوجود، لا تشعر بأية حاجة، تسافر منفرداً لا يعينك اللوم ولا المديح، تقود الغير ولا يقودك أحد".

* * *

قد يعجب البعض كيف أقارن بين الحكمة الشعبية وبين المذاهب الفلسفية الكبرى، وقد يرى بعض المهتمين بالدراسات الفلسفية من القحة والتهجم على قدسية الفلسفة أن أحاول التقريب في مجال الأخلاق بين الحكمة الشعبية وبين المذاهب الفلسفية الكبرى. فلهؤلاء أؤكد أن بذور التفكير الفلسفي مغروسة في جميع العقول، تقضى عليها لدى البعض ظروف معينة، وتنميها لدى آخرين ظروف مواتية. ليست الفلسفة ركاماً من المعارف المختزنة، إنما هي اتجاه فكري، وإحساس بمشكلة تعرض للذهن وتأملها تأملاً حراً بغية الاهتداء إلى سرها عن طريق العقل والمنطق.

وإذا فهمت الفلسفة على هذا النحو، قر في نفوسنا أن الواجب يقضى علينا أن نتعمق حياة العامة ونغوص على حكمهم السائرة، ونجيل البصر في كتب الشعراء والأدباء، لنبرز بدايات التفكير الفلسفي. ويقضي علينا أيضاً أن نكشف عن بساطة المذاهب الفلسفية، وكيف أنها تنبع على نحو طبيعي من نفس المتابع التي تنبع منها الحكم الشعبية مع فرق في درجة الإتقان والتوفيق. حينئذ يتحقق الوئام بين الحكمة الشعبية والفلسفة المذهبية، برفعنا من مقام الأولى وردنا الحياة إلى الثانية، وتندمج عقول العامة وعقول العباقرة في وحدة فكرية نبيلة لا تنفصم عراها.

تلك رسالتي أدعو إليها بكل ما أوتيت من قوة، وأجهد في سبيلها حتى تتلاشى الحواجز الصناعية التي يقيمها نفر من المثقفين أؤكد لهم أن أعقد المذاهب الفلسفية لا يفهم بفهم الألفاظ التي تنقله إلينا، ولكن يفهم المذهب عندما نلمس المشكلة التي اعترضت ذهن صاحبه، وتتمثل الكفاح الفكري الذي قام به حتى توصل إلى حل المشكلة وتفسيرها بمذهبه، أي عندما نعيش اللحظات الفكرية التي عاشها حينئذ نكتشف أن المشكلة ذاتها قد تعرض لأي ذهن، حتى ليمكننا في أحوال كثيرة أن نوفق في رد بعض المذاهب الكبرى إلى أصول في الحكمة الشعبية.

إن الفلسفة حركة فكرية طبيعية قبل أن تكون معرضاً لفظياً لمصطلحات مبتسرة، وهي بهذا المعنى بسيطة كما رآها ديكارت وغير واحد من فلاسفة الفرنسيين.

وفيما أنا مشغول بالتفكير في هذه المحاولة، أقرأ رسالة صغيرة أهداها إلينا أستاذنا الدكتور عثمان أمين[١] يحلل فيها خصائص العقلية الفرنسية، إذا بي أجد ما يؤيد محاولتي. وكم كان سروري عظيماً عند ما بلغت قوله: ليست عبقرية الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين إلا كمال ذلك المعنى الذي نجده متجلياً عند فلاحي فرنسا ملموساً في أعمالهم اليومية"[٢]. وعندما ردد مع "برجسون" "ليس هنا لك فكرة فلسفية مهما يكن حظها من العمق والدقة إلا ويستطاع– بل يحسن– التعبير عنها بلغة الناس المتداولة البسيطة". ومع "بوالو".

"إن ما أجدنا تصوره استطعنا أن نعبر عنه تعبيراً واضحاً، وجاءتنا الألفاظ عنه طائعة مختارة". وعندما علق على قولي برجسون وبوالو بعبارة ساخرة تحفزني إلى المضي في طريقي، وتعتبر خير سند لفكرة التقريب بين عقول الفلاسفة وعقول المستنيرين من البشر: "ليست كل المياه الملوثة بالطين مياها عميقة، ولا كل المياه الصافية مياها سطحية"[٣].

لست إذن أدعو إلى المستحيل، ولا أنا أطلب بدعاً، فالفلاسفة الفرنسيون أنفسهم مهدوا السبيل أمامنا، فلم يشحنوا مؤلفاتهم بتلك المصطلحات الفنية التي تعتبر ستاراً صفيقاً يحول بين الكثيرين وبين فهمها، بل عرضوا أفكارهم في بساطة ووضوح، ولم يعمدوا إلى غموض هو كما

---

[١] خصائص الروح الفرنسي.

[٢] صفحة ١٦.

[٣] خصائص الروح الفرنسي.

قال برجسون: "في منزلة القناع يلقيه المؤلف على فكر لم يوفق بعد إلى أن يستبين ذاته تمام الاستبانة". وتوجهوا بفلسفتهم إلى الإنسانية؛ ذلك أن الفلسفة في رأيهم حق للبشر جميعاً، وليست امتيازاً لطبقة على أخرى.

* * *

لست أبغي أن أمحو الفروق العديدة التي تميز فكر الفيلسوف عن فكر الجمهور، إنما أريد التقريب وعقد الصلات بينهما، وبيان أن الهوة المزعومة بينهما لا وجود لها. ذلك أن المذاهب الفلسفية استمرار طبيعي لفلسفة صامتة، تتسلل في آلاف الأذهان خفية كما تتسلل النار الكامنة، حتى تشتعل وتومض وميضا يبهر الأبصار، بعد أن تكون قد مرت بدور كمون طويل. فما من مذهب جديد إلا وله سوابق وممهدات في مذاهب السابقين، وهذه بدورها سبقتها نظرات ولمحات صامتة تبدو في حكم العامة وأساطيرهم وشعر الشعراء وقصص الأدباء. ولكن هؤلاء جميعاً بدت النظرات الفلسفية في إنتاجهم دون قصد أو وعي بها؛ ومن أجل هذا أسميها فلسفة صامتة. إنما الفلسفة الناطقة هي تلك التي تعبر عنها المذاهب الفلسفية التي صاغها أصحابها على وعي منهم بها، والتي تبدو جديدة مبتكرة. وما هي– لو تأملناها وأحطنا بملابساتها– غير تأليف وتوفيق جديد بين عناصر قديمة مرت بالعقل البشري من قبل، وبوسعنا الاهتداء إليها في مذاهب السابقين، بل منبثة في ثنايا الشعر والحكمة الشعبية القديمة قدم الإنسان ذاته.

إليك مثلاً أفلاطون وهو صاحب أول مذهب متكامل شامل في تاريخ الفلسفة. يبدو مذهبه عملاً ابتكارياً صرفاً. ولكن الحقيقة التي يكشف عنها تاريخ الفلسفة أن بعض النتائج التي وصل إليها غيره من المفكرين السابقين عليه، قد دخلت في تكوين هيكل فلسفته: نظرية هرقليطس في التغير المستمر، وفكرة فيثاغورس في العدد والموسيقى، ورأى بارمنيدس في الوجود ثم فلسفة سقراط أستاذه الحبيب، هذه جميعاً امتصها أفلاطون وتمثلها حتى استحالت إلى كيانه الفكري كما تستحيل الأغذية إلى كياننا الجسمي. ليس هذا فحسب بل نستطيع لو ثابرنا أن نجد في الفكر القديم عند الهنود والمصريين أفكاراً تتصل بسبب قريب بأفكار منبثة في مذهب أفلاطون. يقول الأستاذ إسماعيل مظهر:

"إن مبادئ أفلاطون الأساسية، وفكراته الجوهرية التي قام عليها مذهبه، تدفع بنا إلى الرجوع سعياً، لا إلى أسلافه الأقربين ولا على معلمه العميق الغور سقراط، الذي عاش في صفحات ما كتب أفلاطون، ولكن إلى مدارس متفرقة سبقته فأكبت على التأمل الفكري في إغريقية وأيونيا وإيطاليا. ومن قبل هؤلاء قد نرجع إلى عصر الشعر، ذلك العصر الذي ترى فيه بدايات الفلسفة تكاد تبدو من ضباب الزمن، وهي لا تكاد تعرف حتى من قيمة ذاتها شيئاً. ثم مد نظرك لأبعد من هذه الفلسفة غير الواعية لحقيقة ما هي، وانغمر في ضمير الزمان إلى تلك البدايات التي تمثلت في الميول العقلية والخلجات النفسية، وترامي قوى الفكر إلى حجب العالم، تجد أن هذه الأشياء قد شهدت ميلاد فكرات تمت إلى فكرات أفلاطون بنسب، منحدرة إليه من مدنيات عتيقة موغلة في القدم من الهند

ومصر، وتجد فوق ذلك أن هذه الفكرات لا تزال حتى اليوم تؤثر أثرها المحتوم في عالم التأمل"[١].

وليس هذا عجيباً إذا علمنا أن الطريق إلى التعميمات الفلسفية ليس عقل الفيلسوف وحده. فهنالك لدى العامة حدس صادق، أو حس سليم هو طريق آخر يفضى إلى نظرات عامة في الكون والأخلاق، فيها من الصدق والصفاء ما يجعل لها قيمة تداني قيمة مذاهب الفلاسفة. والخلاصة أن المذاهب الفلسفية تقابلها فلسفة واقعية صامتة أو هي– كما قال الأستاذ إسماعيل مظهر: "لا تعي ذاتها".

عقد الأستاذ "ألبير باييه"[٢] في كتابه "أخلاق العلم"[٣] فصلاً يبين فيه أن النظريات الفلسفية الأخلاقية، تسبقها أخلاق واقعية، وأنها مجرد تركيز أو تبلور لتصورات الناس الواقعية لمثل أعلى. بل ويفضل الأخلاق الواقعية على النظريات الفلسفية لأن أثر الأخيرة في تطور المجتمع أثر يكاد ينعدم.

يقول الأستاذ باييه بهذا الصدد:

"لننظر في أكبر تحول عرفته المجتمعات البشرية: وهو إلغاء الرق. لو سئلنا اليوم في القرن العشرين باسم أي مذهب نستنكر الرق؟ استطعنا أن

---

[١] في مقال له بعنوان "الفيلسوف الباكي" هرقليطس. بالمقتطف عدد يونية سنة ١٩٤٥.

[٢] الأستاذ بالصربون.

[٣] قام بترجمته تلميذه الدكتور عثمان أمين بعنوان "دفاع عن العلم"

نجيب جواباً لا يخلو من منطق: إن فلسفة القرن الثامن عشر التي أعلنت حقوق الإنسان، ولكنا نعلم حق العلم أن تلك النظرية لم تحرر إلا بعد حين، أي بعد أن كانت المهمة قد تمت، وبعد أن كان الرق كله قد اختفى أو كاد يختفي من مجتمعاتنا، ولكن لنبحث في التاريخ عن المذاهب التي أدت إلى إلغاء الرق: يحيل بعض المفكرين إلى الأخلاق الرواقية، ولكن الرواقيين كان لهم أرقاء. ويحيل البعض الآخر إلى الأخلاق المسيحية، ولكن المسيحية كان لها أرقاء. ولقد كان المفكرون من جميع المدارس يجدون دائماً صيغة مرنة تعينهم على أن يراعوا النظام العتيق، وكأنهم يحملون عليه بإحدى اليدين ويؤيدونه باليد الأخرى. ابحث ما شئت في التاريخ، فإنك لن تجد ذلك المشهد الرائع: مشهد مذهب يقوم فيقضى على الرق. ولكن من حسن الحظ أن هنالك أخلاقاً واقعية كانت تعمل وتؤثر، بينا كان الفلاسفة يتكلمون ويكتبون. وتلك الأخلاق الواقعية هي التي ألهمت "نيرون" ذلك المحسن إلى الإنسانية، أن يحقق ذلك العمل الثوري العظيم الذي أباح للرقيق إذا عومل معاملة بالغة القسوة أن يرفع شكواه إلى القضاء. وألهمت القرارات الكثيرة التي أصلحت حال الرقيق ثم الموالي. فماذا كانت حقيقة تلك الأخلاق الواقعية؟

لو سئل الذين كانوا أول من عمل لهذه الأخلاق، يقعون في متناقضات تستدعي الإشفاق حين يستهدفون إلى الإشارة بهذا الصدد إلى

شيء من المبادئ[1]. ولكنا نحن بعد حين نرى النهج الذي سلكوه، والذي انتهى إلى حقوق الإنسان. إن الأخلاق الصامتة المتضمنة في جهودهم المتواصلة أقوى من العبارات المزعومة التي نقرأها في كتب الفلاسفة".

أجل، بينا كان الفلاسفة يكتبون ويناقشون مذاهبهم الفلسفية في الأخلاق، كانت هنالك في ضمير الشعب فلسفات أخلاقية واقعية، تؤثر أثراً قوياً ولكن في صمت، حتى تحققت بعد أن كانت أملاً تهفو إليه النفوس، ذلك هو التحرر من الرق والعبودية.

الفلسفة في الإنتاج الأدبي

ألا ينهض ذلك دليلاً على أن الفلسفة تمد جذورها في حياتنا إلى أعماق سحيقة؟ وأن لحظات قد تواني جمهور الناس– رغم طغيان المشاغل اليومية– فتنفذ بصائرهم إلى هذه الأعماق، وتغوص عقولهم إلى القاع لتصعد محملة بلآلئ الأفكار يذيعونها أمثالاً مأثورة أو حكماً، وقد لا يفصحون عنها لفظاً، ولكن تفصح عنها حياتهم بما تنطوي عليه من معنى فلسفي؟ ولو تركنا طبقة الجمهور إلى طبقة الكتاب من غير الفلاسفة، لوجدنا في طيات كتبهم نظرات وتعميمات فلسفية. مثال ذلك: مسرحيات سوفوكليس وشكسبير وموليير وروايات بردناردشو وأندريه جيد ونجيب الريحاني وشارلي شابلن وجوته، ترى فيها جميعاً لمحات فلسفية منبثة هنا

[1] يقصد أن إرجاع هذه الأخلاق الواقعية إلى مذهب من مذاهب الفلاسفة عمل لا يخلو من تناقض.

وهناك في إنتاجهم، وطالما كانوا أكثر توفيقاً من الفلاسفة؛ إذ سرعان ما تنفذ اتجاهاتهم إلى شعاب نفسك في يسر لتستقر في الأعماق. وما ذلك إلا لأنهم لم يعمدوا إلى ما يعمد إليه أهل الصنعة من الفلاسفة حين يجردون الأفكار من الحياة، وينتزعونها من الواقع الذي تولدت فيه، ونمت وازدهرت.

أينما نولي الطرف في الإنتاج الروائي الخالد، يقع بصرنا على بطل يجسم مشكلة من المشاكل الإنسانية، تعترضنا جميعاً أياً كان زماننا وأيا كان مكاننا، كمشكلة السعي الأبدي لبلوغ الحق والخير والجمال كما تصورها مأساة "فاوست"، والصراع الدائم بين قوى الفرد وقوة المجتمع العاتية التي لا تأبه لآمال الأفراد أو آلامهم كما تبرزها قصة الحلاق الفيلسوف "فيجارو"، أو روايات نجيب الريحاني التي تضحكنا رغم انطوائها على المأساة البشرية الكبرى: ما تلاقيه النفوس الخيرة من عنت في هذا العالم، والتي تنتهي جميعاً إلى اعتبار الخير غاية في ذاته والسعادة في راحة الضمير؛ والمتتبع لروايات شارلي شابلن خاصة في الفترة الأخيرة من حياته يلمس روحاً فلسفية تسري في جوانبها. لو تأملنا آخر رواياته "المسيو فيردو" محترف قتل السيدات لاستخلصنا الدرس العميق الذي يلقيه على الإنسانية العاتية الحمقاء "التي ترفع مثيري الحروب الذين يسفكون دماء الملايين إلى منزلة الأبطال الخالدين، وتحكم بالإعدام على فرد قتل عدداً قليلاً من النساء ليحصل منهم على ما يقيم الأود بعد أن طرق الأبواب فلم يجد رزقاً"، ذلك الدرس يفرغه شارلي العظيم في الحوار الأخير بينه وبين القسيس الذي أتى يباركه قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه، إذ يعلن للقسيس

عدم احتياجه إليه فيلح القسيس عليه أن يصلي ويتحدث إليه لعل الله يستجيب له فيقول "المسيو فيردو": ليس الخلاف يا سيدي بيني وبين الله، إنه بيني وبين البشر". أجل إن النظام الطبيعي خير ولكن البشر هم الذين يفسدونه. البشر وحدهم مسئولون عن وجود الشر في العالم، ويخطئ من يدعى أن الله يريد بالعالم شراً.

عالج كثير من الفلاسفة في أسفار عدة موضوع الإرادة الإنسانية أهي حرة أم مجبرة، وعالجوا فكرة القضاء والقدر، وفكرة الاتفاق في الطبيعة والحظ لدى الإنسان. ونستطيع الاستنارة في هذه الموضوعات لو فتشنا عنها في كتب الفلاسفة، ولكنا نراها في ضوء باهر، ونلمسها ونحياها لو أنا عشنا لحظات مع الشاعر الروائي سوفوكليس في مسرحيته "أوديب ملكاً" التي كتبها في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، أو لو أنا جلسنا إلى "أندريه جيد" نقرأ روايته "أوديب" التي كتبها في فرنسا منذ أعوام قلائل. خمسة وعشرون قرناً من الزمان تفرق بين الخالدين، دون أن تمحو من الأذهان مشكلة فلسفية كبرى: تلك هي الصراع بين القضاء المحتوم والإرادة الإنسانية المختارة.

ولأترك القارئ لحظات إلى أستاذنا الدكتور طه حسين يكشف له عن الفلسفة التي تتضمنها قصة أوديب عند كل من سوفوكل وجيد[1]:

---

[1] نقلاً عن محاضرته في نادي الخريجين المصري سنة ١٩٤٩ "الملك أوديب في الآداب المختلفة".

"هنالك قضاء كان اليونان يؤمنون بأنه مسيطر على كل شيء وعلى كل كائن، لا يفلت منه الآلهة أنفسهم. وهناك الإنسان كان يشعر بأن له عقلاً يميز به بين الخير والشر، وبأن له إرادة يعمد بها إلى أحد هذين الشيئين اللذين يميز العقل بينهما وهما: الخير والشر. فليس هناك إذن بد من أن يكون اصطدام بين القضاء المحتوم الذي لا يفلت منه الإنسان أو الإله، وبين هذه الإرادة التي زعم الإنسان أنها حرة مختارة تستطيع أن تعمد إلى ما تحب وتنصرف عما تكره سواء أراد القضاء أو لم يرد.

هذه الفكرة التي قصد سوفوكل إلى أن يصورها في قصته ومن قبله كان الشاعر اليوناني الممثل (أيسكلوس) الذي ذهب في تمثيله إلى تغليب القضاء على الإرادة الحرة المختارة، ومن بعده جاء الشاعر اليوناني الممثل (أروبيد) الذي ذهب إلى كسب الحرية للإرادة الإنسانية وأنكر القضاء أو كاد ينكره. أما سوفوكل فتوسط بين الأمرين. لم ينكر القضاء ولكنه لم يلغ الإرادة الإنسانية، وإنما اعترف لها بشيء من الحق واعترف لها بأنها إن لم تستطع تغيير مجرى القضاء، فإنها تستطيع أن تقاوم هذا القضاء مقاومة ما...

صور لنا سوفوكل صراعاً بين القضاء وبين الإرادة، وأظهر لنا الإنسان وقد غلبه القضاء. ولكنه لم يغلبه في سهولة ويسر. وإنما غلبه بعد أن قاومه الإنسان مقاومة عنيفة متصلة، بالغة أقصى ما يمكن أن تبلغ من القوة والعنف..."

ثم يمضي الدكتور طه مبيناً تصور أندريه جيد لنفس المشكلة:

"يصور لنا أديب مصارعاً للقضاء يغلبه القضاء أولاً. ثم مؤمناً بنفسه معتزاً بإرادته وينتصر على القضاء آخر الأمر... أوديب عنده رمز للإنسان الذي لا يؤمن إلا بنفسه وبإرادته، قد قبل سعادته راضياً عنها وهو مطمئن كل الاطمئنان إلى أن الرجل الحق هو الذي يتلقى الحياة صامداً لها راضياً عنها، متنعماً بخيرها عن ثقة وعلم أيضاً، لا يشكو ولا يتزعزع، فهنالك سؤال واحد يلقي دائماً على كل إنسان ليس له إلا جواب واحد. أما السؤال فهو: ما اللغز وكيف يحل لغز الحياة الإنسانية؟ وأما الجواب فهو: أن اللغز هو الإنسان، وحله: هو أن يمضي الإنسان تبعاً لإرادته، وفق عواطفه وشعوره وغرائزه وعقله.

هذه هي القصة التي كتبها أندريه جيد وهي كما ترون تمعن في الفلسفة، وتبعد عن العناية الفنية".

الحياة أعظم الشرور

تحدثنا الحكمة الهندية[1] أن الأمير السعيد (ساكياموني) وهو من نعرف باسم (بوذا) خرج في عربته وهو شاب قد خفي عنه العلم بالمرض والشيخوخة والموت. فوقعت عيناه على رجل مسن مفزع، تحطمت أسنانه وسال لعابه من فمه. فدهش الأمير الذي خفي عنه حتى اليوم العلم بالشيخوخة، وسأل سائق عربته عما رأى، وكيف آل هذا الرجل إلى مثل

[1] نقلاً عن كتاب (اعترافات تولستوى) ترجمة الاستاذ محمود محمود.

هذه الحال الزرية المقززة. ولما علم أن ذلك هو المصير المألوف للناس جميعاً، وأن تلك الحال عينها تنتظره بغير مناص– وهو الأمير الشاب– لم يستطع أن يواصل السير، وأمر السائق أن يقفل راجعاً إلى البيت كي يتدبر الأمر. ثم حبس نفسه وأخذ يفكر. وربما وجد في نفسه ما يعزيه، لأنه خرج بعدئذ في العربة مرة أخرى وهو مرح سعيد. غير أنه رأى هذه المرة رجلاً مريضاً: رأى رجلاً هزيلاً شاحب اللون قاتم العينين يرتعش من شدة الهزال. فوقف الأمير الذي خفي عنه العلم بالمرض، وسأل عما رأى ولما علم أن ذلك هو المرض الذي قد يتعرض له أي إنسان، وأنه هو نفسه– وهو الأمير الصحيح البدن الهانئ القلب– قد تصيبه العلة في غده، عاد إليه ذلك الاكتئاب الذي يحرمه المتعة بحياته وأمر سائقه أن يقفل راجعاً إلى البيت. وبحث عن العزاء مرة أخرى، وربما وجده، لأنه خرج في عربته للمرة الثالثة قصد النزهة. ولكنه في هذه المرة الثالثة رأى مشهداً آخر جديداً؛ رأى جماعة تحمل شيئاً فسأل:

"ما هذا؟" فقيل له:

"هذا رجل ميت". قال:

"ما معنى كلمة ميت؟" فقيل له:

"إن المرء حين يموت يمسى كذلك الرجل"

واقترب الأمير من الجثة، ورفع عنها الغطاء، ونظر إليها، وسأل:

"ما الذي سيحدث له الآن؟" فقيل له:

"إن الجثة ستواري التراب".

"لماذا؟".

"لأنه بالتأكيد لن يعود إلى الحياة، ولن يصدر عنه غير النتن والدود".

"وهل هذا هو مصير الناس أجمعين؟ هل يحدث لي نفس هذا الشيء؟ هل يدفنونني؟ وهل تصدر عني الرائحة الكريهة ويأكلني الدود؟".

"نعم".

"إلى البيت. لن أركب عربتي للنزهة، ولن أفعل ذلك مرة أخرى".

ولم يجد ساكياموني في الحياة ما ينطوي على أية قيمة وانتهى إلى فلسفته التي تقرر أن الحياة أعظم الشرور، وأن الخير يقضى بالتحرر منها ودعوة الناس للتحرر منها بكل ما يملكون من طاقة روحية. وهذه القصة ترمز إلى فلسفة الهند الزاهدة في الحياة، المتعلقة بالروحانية. وهي عين الفلسفة التي يعبر عنها سليمان الحكيم في الكتاب المقدس إذ يقول:

"باطل الأباطيل– كل شيء باطل. ما فائدة الإنسان من أي عمل يتولاه تحت الشمس؟ جيل يتولى وجيل يقبل إلى الأبد. إن ما كان سوف يكون وما حدث سوف يحدث، وليس تحت الشمس جديد؟ هل هناك شيء نستطيع أن نقول عنه: أنظر! هذا جديد؟ كلا. إنه من قديم الزمان الذي سلف. ليس لما سلف ذكرى، ولن تكون لما يقبل ذكرى. أنا الذي أعظكم كنت ملكاً على بني إسرائيل في بيت المقدس، ولقد وهبت قلبي

للتنقيب والبحث عن طريق الحكمة في كل ما حدث تحت السماء... وناجيت قلبي وقلت له: هيه، أنا مالك لضيعة كبرى وعندي من الحكمة أكثر من كل من سبقني ببيت المقدس– أجل، إن قلبي مفعم بكثير من تجارب الحكمة والمعرفة. ولقد وهبت قلبي لإدراك الحكمة ولمعرفة الجنون والحماقة، فرأيت أن ذلك يبعث على الحزن العميق. ومن يزدد علماً يزدد أسى.

قلت لنفسي: الآن انطلق، ولسوف أمتحنك بالمرح. وإذن فلتنعم بمختلف المتع. فكان ذلك باطلاً كذلك... شيدت لي بيوتاً وزرعت الكروم، وأنشأت الحدائق والبساتين، وغرست فيها الشجر من كل الثمار، وحفرت البرك أروى من مائها الغابة التي تنمو بها الأشجار، واستخدمت الخدم الإماء، وولدت الخدم في بيتي، وامتلكت من قطعان الغنم والماشية أكثر من كل من سبقني في بيت المقدس. وجمعت كذلك الذهب والفضة ونوادر الكنوز من مختلف الملوك والأقاليم. وظفرت بالمغنين والمغنيات، وبكل ما يلهو به ابن آدم، كآلات الموسيقى وما إليها. وهكذا كنت عظيماً، وتوفر لي ما لم يتوفر لكل من سبقني ببيت المقدس. وبقيت حكمتي معي كذلك، ولم أحرم عيني من كل ما اشتهتا، ولم أبعد قلبي عن أي لون من ألوان السرور... ثم نظرت إلى كل عمل عملته يداي، وإلى الجهد الذي بذلت... فرأيت أن الكل باطل يبعث على حنق النفوس، وليس من ورائه جدوى تحت الشمس. وهناك حدث واحد يقع للطيبين كما يقع للأشرار ولمحبي الخير ومحبي الشر، وللطاهر والدنس، ولمن يضحي ومن لا يضحى، والطيب كالخبيث، ومن يقسم بالباطل ومن يخشى القسم.

إنه شر يتخلل كل ما يقع تحت الشمس، وكل شيء يتعرض لحدث واحد. نعم إن قلوب بني الإنسان كذلك مليئة بالشر، والجنة في قلوبهم ما داموا أحياء، وبعد ذلك يذهبون إلى الموتى"[١].

* * *

لندع أسطورة بوذا وموعظة سليمان فهما من الحكمة الشعبية الصامتة، لنتأمل قليلاً رأي كل من سقراط وشوينهور الفيلسوفين. يقول سقراط وهو يتأهب للموت: "إننا نقترب من الحقيقة كلما أشرفنا على مفارقة الحياة، إذ ما الذي نجاهد في سبيله نحن محبي الحقيقة؟ إننا نجاهد في تحرر أنفسنا من الجسد! ولما كان الأمر كذلك، فلماذا إذن لا نفرح حينما يأتي إلينا. إن الرجل الحكيم يبحث عن الموت طوال حياته، ولذا فالموت لا يفزعه"

ويقول شوينهور: "إذا ما أدركنا أن طبيعة العالم الخفية ليست سوى الإرادة[٢]، وأن كل مظاهر الطبيعة– من الحركة اللاشعورية لقوى الطبيعة الغامضة إلى عمل الإنسان الكامل الوعي– إن هي إلا مظاهر لهذه الإرادة، لم يعد لنا ما يبرر التخلص من هذه النتائج: وذلك أنا إن نبذنا الإرادة وتخلينا عنها طائعين، ألغينا كذلك كل تلك المظاهر– ذلك التيار الدافق والجهد الذي لا يكل ولا يهدأ في كل مرحلة من مراحل المظاهر

---

[١] نفس المصدر.

[٢] إرادة الحياة.

الطبيعية التي منها وعن طريقها يتألف العالم؛ وتلك الصور المتعددة التي تتلو إحداها الأخرى في تدرجها، وستختفي مع هذه الصور كل دلائل الإرادة، وستختفي كذلك في النهاية الصور العالمية لتلك الدلائل– الزمان والمكان، والصور النهائية الأساسية، أي أن كل ما هو ذاتي وكل ما هو موضوعي سوف يتلاشى. إذا لم تكن هناك إرادة فلن يكون هناك مظهر لشيء، ولن يكون هناك عالم. إنه لا يبقى أمامنا بالتأكيد سوى العدم".

وقف تولستوى[1] أمام هذه الأقوال الأربعة فوجدها جميعاً تجيب عن سؤال واحد عرض لكل منهم بصدد مشكلة الحياة وتنتهي إلى نتيجة واحدة.

يقول سقراط: "إن حياة الجسد شر وأكذوبة. وإذن فتحطيم حياة الجسد نعمة، يجب أن نتمناها"

ويقول شوينهور: "الحياة هي ما لا ينبغي أن يكون– هي شر والانتقال إلى العدم هو وحده ما في الحياة من خير".

ويقول سليمان: "كل ما في الحياة– من حماقة وحكمة وثراء وفقر ومرح وحزن– باطل وعدم. يموت المرء ولا يبقى منه شيء وهذا سخف".

ويقول بوذا: "يستحيل على المرء أن يعيش وهو يدرك أن الألم والضعف والشيخوخة والموت أمور لا مفر منها– يجب أن تتحرر من الحياة

---

[1] "اعترافات تولستوي" ترجمة الأستاذ محمود محمود ص ٤٢.

الممكنة كلها". ويعلق تولستوي على هذه الأقوال بما يؤيد دعوانا التي سبقت الإشارة إليها وأعني انتساب المذاهب الفلسفية إلى الحكمة الشعبية فيقول:

"وما ذكره أصحاب العقول الجبارة فكرت فيه وأحست به وعبرت عنه ملايين الملايين من أمثالهم من البشر. وقد فكرت فيه وأحسست به أنا كذلك".

كتاب الحياة

لعل قارئي العزيز قد اقتنع بعد هذا العرض لنصوص الكتاب والحكماء أن حس هؤلاء الدقيق يكفل لهم في كثير من الأحيان النفاذ إلى كنه الحياة، وأن حكمهم السليم المبرأ عن الهوى وسيلة من وسائل المعرفة الفلسفية، وأن إنتاجهم لا يخلو من نظرات عامة في الكون لم تفسدها الصنعة ولم يعوزها الصدق في التصور. ولعله قد تبين أن كتب الفلاسفة ليست وحدها المصدر الذي نستقى منه الفلسفة، فقد نستقيها من حكمة الشعب كما بينا في مقال سابق، وقد نستخلصها من الأدب الروائي أو الشعر والأساطير، وقد نهتدي إليها في مسلك كثير من الناس، وبالجملة قد نتعلمها في مدرسة الحياة. وقد تنبه ديكارت إلى هذه الحقيقة فأنحى باللائمة على العلوم التي تدارسها في المدرسة، واتهم بالقصور والتفاهة المعارف التي تلقاها على أساتذته. فألقى بالكتب عرض الحائط، وعول على أن يبدأ حياته الفكرية من جديد بقراءة "الكتاب الكبير"، كتاب الحياة فأقبل على

الناس يضطرب وإياهم في مناكب الحياة، وأنفق بقية أيام شبابه في الارتحال ورؤية القصور، وتعلم صنعة الحرب على يد أشهر جندي في أوربا في ذلك الحين وهو الهولندي "موريس دي ناسو". ثم رحل إلى ألمانيا، وهناك ساهم إلى جانب بافاريا في مقاتلة بوهيميا الثائرة في الحرب المعروفة بحرب الثلاثين، وخالط مختلف الأجناس والشخصيات. وهكذا طفق يستمد فلسفته من مصدرين: نفسه حيث "النور الفطري وحيث تكمن الحقيقة كمون النار في الحجر الصوان" والعالم حيث الحقيقة حية بسيطة لم يفسدها التجريد والجفاف، فجاءت فلسفته مثلاً رائعاً للوضوح والإشراق والتكامل المذهبي، واستحق بجدارة لقب "أبو الفلسفة الحديثة".

إن المتفلسفين الأكاديميين ليكشفون عن غرور أحمق– إذ يزدرون هذه المصادر الكبرى ويعتزلون في أبراج عاجية شاهقة بمعزل عن الحياة التي تلفهم جسداً وعقلاً، يقضون العمر فيها يجترون أفكاراً جامدة لا حياة فيها، فارغة خلواً من المعنى، متوهمين أنها الحق في حين أنه هنالك عند أقدامهم: في عقول المحنكين، ذوي الحس الدقيق والبصيرة النافذة من العامة والكتاب، ممن لم يفسد تفكيرهم التعمل. إلى هؤلاء أسوق سخرية عمر الخيام من الفلاسفة ليطامنوا من كبريائهم:

"طالما خضنا غمار وسمعنا من صواب وسفه
وخبطنا في مضل ثم صرنا حيث كنا أولاً

---

(١) المضل المعسفة هو المجهلة من الأرض يخبط فيها المرء على غير هدى.

لم تسر نحو الهدى قيد ذراع

كـم بـذرنا حكمـة الفكـر وســقيناها حيــا[1] العقــل
مـا جنينـا غـير بهتـان وزور مـا علمنـا غـير أنا في المـلا
شعل البرق خبت بعد التماع[2]

ولا يفوتني أن أعيد إلى الأذهان سخرية باسكال[3] من فلسفة أفلاطون في عبارته الشهيرة "أراد أفلاطون أن يعلو على الطبيعة فسقط إلى الحضيض". إذا كان أفلاطون العبقري الفذ مهدداً بالسقوط إلى الحضيض فما رأى المتفلسفين الذين يقيمون بينهم وبين البصرة الشعبية سداً منيعاً؟ لقد كان لأفلاطون من تماسك مذهبه أسس مكينة تحميه من السقوط، فيما ذا يتشبث أصدقاؤنا هؤلاء وهم يحتمون بأبراج من خيوط العنكبوت؟!

* * *

بعد كل ما تقدم أخشى أن نسف في فهم الفلسفة ونظن كل نظرة عابرة فلسفة كبرى، وصاحبها فيلسوفاً كبيراً، فنخدع عن أنفسنا، ويركبنا الغرور. ولذلك أنبه القارئ إلى أن تلك النظرات ليست سوى محاولات للنظر الفلسفي يأتيها الحكيم الشعبي أو الروائي، ثم إنها محاولات تلونها

---

[1] الحيا المطر.

[2] الرباعيات ترجمة الأستاذ مُحَمَّد السباعي.

[3] فيلسوف ورياضي سويسري.

الانفعالات والأمزجة الخاصة، ولا تكاد تنفصل عن السلوك العملي وشئون الأخلاق، وقلما تتعرض لمسائل ما بعد الطبيعة. فلسفة الشعب مزيج من القول والفعل، والعقل والنقل، مصدرها تجاريب العيش وصروف الأيام، أفراح الحياة وأتراحها؛ ويقين الشعب بفلسفته أشبه باليقين الديني لا يحتاج إلى دليل أو برهان، وذلك ما يخلع عليها حرارة تعوز مذاهب الفلاسفة التي تتميز ببرود المنطق وجفاف الجدل. وأداة الفلسفة الشعبية ليست المنطق الصوري، ولكنها ملكة الحكم السليم التي يدعوها الفرنسيون (bon sens) ويسميها الإنجليز (Common sense)، وأثرها في نفسيه الشعب عميق غاية العمق: تثبت فؤاده، وتعزيه عما يصادف من محن، وتبرر كثيراً من تصرفاته. أما صورتها العامة فيعوزها التكامل لأنها نظرات مبعثرة، وخواطر متفرقة يندر أن تأتلف كلا واحداً.

أما الفلسفة بالمعنى الخاص فبريئة من أمرين: النظرة السطحية، والنظرة الجزئية. فلسفة الخاصة (أي فلسفة الفلاسفة) تهدف إلى تفسير عام شامل للكون في مجموعه، ولذلك كنا نجد تفسيرات الفيلسوف لمختلف نواحي الكون تنتظم كلا واحداً متناسقاً هو "المذهب". نواة المذهب الفلسفي نظرية كبرى تتشعب منها أو تدور في فلكها نظريات فرعية صغرى في المعرفة والوجود والأخلاق، بل والسياسة والجمال أحياناً. نواة مذهب أفلاطون مثلاً "نظرية المثل". وأرسطو "الهيولى أي المادة الأولى والصورة"، وأفلوطين "الفيض الإلهي"، وشوينهور "إرادة الحياة" الخ...

وللمذاهب الفلسفية قيمة كبرى، فهي الوسيلة التي ينمي بها العقل الإنساني أعمق نظراته وتفسيراته. إنها تعينه على تعمق كنه الحقيقة، وتعطي الأفكار المبعثرة حياة وحركة وقوة. مثل المذهب مثل البلورة تلم شتات الأشعة، وتركزها في نقطة ضوئية صغيرة، ولكنها أكثر التماعاً والتهاباً من الأشعة المتفرقة. وبدون هذه الجهود التي يحتملها الفلاسفة من ذوي المذاهب المتكاملة" فإن الأفكار الإنسانية المتفرقة قد تومض في لحظات من التأمل المتكاسل المتراخي وسرعان ما ينطفئ الوميض.

وأضيف أخيراً أن الفيلسوف أقدر من المفكر العادي على التحرر من شطحات الخيال، ونزوات الانفعال، وأكثر منه فردية وابتعاداً عن تيار الحياة الجارف الرتيب. لا يوقن بأمر قبل أن يتناوله بالنقد، ولا يسلم برأي دون تمحيص؛ لا تراوده فكرة إلا قلبها على جميع الوجوه؛ تلقي إليه بالرأي فيطلب الدليل، وتنقل إليه الخبر فيلتمس البرهان، وتقدم إليه التفسير فيسعى إلى تفسير لذلك التفسير. منهجه الشك قبل اليقين، الشك في كل شيء حتى في عقله، وشعاره النقد قبل التسليم. الاستسلام للعاطفة عنده خطأ مبين، والرضا بالمزاعم الجارية إثم لا يغتفر. عقل مستديم القلق، وذهن لا نهائي التساؤل، وفكر لايني عن التحميص. النظرة العابرة لا ترضيه، واستكشاف الجزئيات لا يكفيه، فميدانه الكون في مجموعه، وهدفه الحقيقة كاملة غير منقوصة.